(مذكرات الدكتور محمد ناصر العثمان)

الأستاذ المتمرس الدكتور فاروق صالح العمر
جامعة البصرة / كلية الآداب

إن المؤرخ شاهد مهمته رسم لوحة بيانية عن مجرى الحوادث التي وقعت خلال الدهور . قد يضطر المؤرخ أحيانا خلال عمله إلى الارتفاع فوق التفاصيل الخانقة ليتنفس ويحاول النظر في ثورى الحوادث التي تحتم عليه إن يلازم منهج الاحتراس الاقصى وان يتثبت من استنتاجاته بعد مواصلة النظر في كل حادث وأن يختبر طريقة سير الحوادث بكل إمعان .

إن ملاحظة إعمال الناس في الماضي تضيف خبرة إلى خبرتنا وهكذا نعيش أعمارا كثيرة ، اذ نحن نضيف إلى خبرتنا ، وهكذا نعيش أعمارا كثيرة إذ نحن نضيف إلى عمرنا أعمار من سبقنا من الناس باكتساب تجاربهم وخبراتهم وجهادهم من اجل الحقيقة والحقيقة وحدها .

إن الدراسات التاريخية بشكل عام تعتمد على مصادر عديدة في الكتابة ... فمنهم من يعطي الوثائق درجة عالية من الاهتمام ومنهم من يعطي الصحف أيضاً مثل هذه الدرجة من الأهمية أو اقل وكذلك المذكرات الشخصية التي نحن بصددها فان أهميتها تاتي من أهمية الشخصية التي دونتها .. وعليه فان التعاطي معها يكون بحذر شديد لأنه ليس كلما يكتب في هذه المذكرات يعتبر متكاملاً في صحته إلا إذا قورن بمذكرات أخرى أو بوثائق تتعلق بالفترة نفسها .

فالمذكرات الشخصية هي حالة مهمة في حياة السياسي أو التربوي أو الكاتب والمشكلة الأساسية عند كاتب المذكرات هو معرفة كيف تتم تدوين الحوادث .

- هل دونت بتجرد
- أم بشكل منحاز
- أم بشكل يناقض الحالة
- أم كتب بحسب رأي الكاتب وتوجهه بعيداً عن الحقيقة .

إن أي مذكرات تفتقر إلى الموضوعية والأمانة العلمية تفقد أهميتها بعد حين عندما تظهر مذكرات موازنة لها في الذكريات المشتركة أو تقارب الفترة الزمنية التي تجمع أصحاب المذكرات ، حيث المقارنة واضحة ، خاصة وأن الكثير من الساسة العراقيين مثلاً في العهد الملكي قد دونوا مذكراتهم وهم في الأساس من كانوا في مراكز عليا في الدولة إن كان رئيس وزراء أو وزيرا أو رئيسا لمجلس النواب أو سفيراً أي أنهم مارسوا العمل السياسي مع بعض ، ما يخفيه احدهم يبرزه الثاني ومن يخاتل منهم يظهر بشكل واضح عند الثاني أو الأخر وهكذا تظهر الحقيقة من اختلاف الرواة لها .

عرض ورأي

وعندما أعود إلى الجزء الأول من مذكرات أستاذنا الدكتور محمد ناصر العثمان أرى انه جاء باربعة فصول :

الأول : النشأة والدراسة في العراق

الثاني : المؤتمر التربوي الأول خلافات ونقد

الثالث : الدراسة خارج العراق

الرابع : طريق العودة إلى الوطن

فاستعرض في الفصل الأول حياته منذ ولادته في أبي الخصيب ١٩١٣-١٩١٤ وعن حياته الدراسية بدأ من الملا (الكتاب) ثم دخوله المدرسة المحمودية الابتدائية في أبي الخصيب ١٩٢١-١٩٢٢ وكان لا ينسى فضل معلميه عليه فهو يذكرهم (إنما ليس في الابتدائية فقط وإنما في دار

المعلمين الابتدائية ، أو أساتذته في الجامعة الأمريكية في بيروت أو بعد ذلك في جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك) .

كما أنه لم ينسى ذكر معظم زملائه في الدراسة خاصةً في العراق وبيروت وفي الحقيقة فانه كما يذكر بدأ بتدوين مذكراته أو خواطره وهو في دار المعلمين الابتدائية أي في بداية حياته العلمية ولهذا فانه يتذكر زملائه في الدراسة أو مدرسة كما ذكرت أعلاه .

وقد حاول في الفصل الثاني إن يكون محايداً ولكنه أبدى رأيه في كثير من المواقف وهذا الفصل كان عبارة عن نزاع بين خطة التربية التي تعتمد على الفكر الوطني والقومي وبين الاتجاه نحو الخبرة العالمية وخاصة الأمريكية . لأنه أكثر الذين أكملوا دراستهم العالية هم من جامعة كولومبيا كان الدكتور محمد فاضل الجمالي ومتي عقراوي وغيرهم من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت وفي الطرف الثاني الذي يؤكد على المحافظة على التربية القومية والوطنية والذي يتزعمه ساطع الحصري . كل هذا كان ضمن المؤتمر التربوي الأول الذي عقد في بغداد ١٩٣٢ وهو العام الذي قبل العراق فيه عضواً في عصبة الأمم .

ثم يذكر لنا الدكتور محمد ناصر سفرنا الأول لإكمال دراسته في الجامعة الأمريكية في بيروت وكذلك إكمال العليا في كلية المعلمين / جامعة كولومبيا .

وفي الجامعة الأمريكية في بيروت تعرف على نظام الكورسات والاختبارات وكان هذا في ١٩٣٢-١٩٣٣ ويذكر : (لاحظت إن المدرسين في الجامعة يؤكد على تحضير الطالب لمادة الدرس مسبقاً وعلى المناقشة لا المحاضرة وعلى إعطاء العديد من الاختبارات للطلبة إثناء الفصل) .

ويضيف (تتميز الدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت بتشجيعها التفكير والإبداع في الطلبة بالإضافة إلى تعليمهم الحقائق العلمية الأساسية بينما اعتدنا نحن الطلاب العرب بعاقة في مدارسنا الابتدائية والثانوية وحتى العالية على الحفظ)) .

كما إن الجامعة تساعد على تأليف الجمعيات والنوادي الطلابية وعلى إشاعة الروح الديمقراطية بين الطلبة وممارسة الأساليب الديمقراطية في مناقشاتهم أو جدلهم .

ولهذا أوجدنا إن خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت قد غذت الأحزاب والتوجهات السياسية في المشرق العربي من اليمين والوسط واليسار كل حسب توجهه من رأسمالية واشتراكية وشيوعية وقد كانت جمعية (العروة الوثقى) وهي جمعية عربية تظم الطلبة العرب المؤمنين بضرورة استقلال البلاد العربية ووحدتها وتقدمها كما إن هناك جمعية عراقية تظم الطلبة العراقيين وتقوم بانشطة مماثلة لجمعية العروة الوثقى إضافة إلى أنها تقوم بمساعدة الطلبة العراقيين الجدد وتعريفهم على الجامعة وعلى بيروت .

إما في جامعة كولومبيا فقد قضى الدكتور محمد ناصر ثلاثة أعوام ١٩٣٤-١٩٣٧ في كلية المعلمين التابعة لهذه الجامعة ومن الأشياء التي يذكرها المؤلف عن البيت الامي والذي قام ببنائه المليونير الأمريكي روكفلر في نيويورك وشيكاغو وكاليفورنيا ، وكذلك في باريس (من اجل إن تسود الإخوة بين الناس) ولكلية المعلمين الجديدة وجهة نظر وقد لخصها بما يلي .

١- إن الخبرة أساس التعليم

٢- إن المعرفة مترابطة وليس مجزأة

٣- إن العالم في تغيير مستمر

٤- إن التدريب على التفكير هو احد وظائف التربية الأساسية وأخيراً يوضح صاحب المذكرات (ماذا أفدت من الكلية الجديدة)

١- النظرة العامة إلى الحياة وبالتالي إلى المجتمع والتربية

٢-التفاعل الفكري بين الطلبة والأساتذة ويرجع إلى .

أ- قلة إعداد الطلبة في الصف أو الحلقة الواحدة

ب- يشجع هذا الوضع على المناقشة وتقليب وجهات النظر المختلفة لاية مشكلة / اجتماعية / سياسية / اقتصادية / .

ح- توفر جو الحرية الفكرية واحترام الرأي الأخر .

٣- (تقديري) للطريقة العلمية أو التجريبية في حل المشكلات .

٤- يحلو للبعض القول ، حسب ما ذكره المؤلف بأن أمريكا أو الولايات المتحدة بوثقة ينصهر في جميع الثقافات ولكن الحقيقة إن ما حدث ولا يزال يحدث هو تفاعل بين الثقافات أو الحضارات أكثر من كونه انصهار أو ذوبان .

إما الفصل الأخير فكان عبارة عن رحلة صيف وذلك في ١٩٣٧ بعد إن أكمل دراسته الأولية والماجستير فقام بزيارة إلى المؤسسات التربوية والنظامية في أوربا في بريطانيا / ألمانيا / فرنسا / ايطاليا وفي لندن هينت له ولمرافقه الدكتور عبد الحميد كاظم زيارة لمدة أسبوعين في جامعة أمستر وكذلك جامعة أكسفورد ثم زاروا بعض المدارس العامة واطلعوا على مناهجها .

إن هذا جزء من العمل التطبيقي لهم والذي هيا من قبل جامعة كولومبيا كزيادة في المعرفة لهم .

ثم كانت زيارته لألمانيا واطلع على نظام التعليم فيها وكان ذلك في عهد حكومة فايمار التي كانت تتمتع بنظام ديمقراطي ليبرالي قبل تسلم الحزب النازي للحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣ ويذكر لعض ما اطلع عليه من المدارس الأولية كما زاروا جامعة برلين (والتي تعتبر أرقى الجامعات الأوربية) وقد نشئت عام ١٨١٠ وكان يطلق عليها جامعة فردريك وليم وكان سكنهم في انكلترا أو ألمانيا أو فرنسا (بالبيت الامي) أيضاً .

وعند وصولهم إلى فرنسا التقوا بالطلبة العراقيين هناك وكان منهم سليم النعيمي وصديق شنشل وناجي معروف وعبد الجبار الجومرد ومصطفى جواد ويحيى الخشاب ، وسهير القلماوي من مصر .

وقد زار هو وصديقه عبد الحميد كاظم جامعة باريس . وهي من أقدم الجامعات الأوربية وذلك عام ١٢١٥ .

ومن ابرز ما يميز الجامعات الفرنسية الحرية الأكاديمية وتعني (حرية كل من الأستاذ والطالب في البحث عن الحقيقة دونما قيد أو شرط) وقد أخذت الجامعات الأوربية عنها هذا التوجه بعد ذلك . وقد كتب المؤلف كثيراً عن فرنسا أكثر من أية دولة أوربية زارها .

ثم توجه الاثنان إلى ايطاليا الفاشية آنذاك ويذكر المؤلف إن النظام الايطالي كالنظام الفرنسي بمركزيته الشديدة أي إن وزير التعليم هو المسؤول عن كل مراحل التعليم . ثم زاروا جامعة روما وقد انتقلت الجامعة إلى أبنيتها الحديثة عام ١٩٣٥ بعد إن كانت كلياتها موزعة على إنحاء روما وتقدم الجامعة مختلف الدراسات الكلاسيكية والحديثة .

عاد بعدها الدكتور محمد ناصر إلى العراق وتعين في دار المعلمين العالية ولم تسنح له فرصة كما جاءت لزميله عبد الحميد كاظم الذي أصبح وزيراً للمعارف حيث إن ابن القرية ابن البصرة كان دائما بعيداً عن ذلك إلى إن جاءت فرصته في العهد الجمهوري ليكون وزيراً وسفيراً

تغمده الله في حياته أنه رؤوف رحيم .